أبو سليمان الخطّابى

٣١٩ — ٣٨٨ هـ

بقلم برهان الدين محمد الداغستانى

تتمـــــة

تابع مؤلفاته

٣ ـ « أعلام السنن » فى شرح البخارى[١] ، وهو شرح لطيف فيه نكت لطيفة وفوائد شريفة

٤ ـ « كتاب الاعتصام بالعزلة »[٢] كتبه بطلب من أحد تلاميذه حقق فيه معنى العزلة وما المراد منها ، ثم عرض لأدلة من أنكر العزلة ومن قال بها ووازن بينها ، فكانت الغلبة فى جانب أنصار العزلة

٥ ـ « كتاب شأن الدعاء » ذكر فيه بعض الأدعية المأثورة وشرح معانيها

٦ ـ « إصلاح غلط المحدثين » أورد فيه قرابة مائة وثلاثين حديثاً يرويها أكثر المحدثين ملحونة أو محرفة أصلحها وبين الصواب فيها[٣]

٧ ـ « شعار الدين فى أصول الدين » التزم فيه إيراد أوضح ما يعرفه من الأدلة من غير أن يلتزم طريقة المتكلمين

٨ ـ « كتاب الشجاج »

٩ ـ « كتاب شرح أسماء الله الحسنى »

١٠ ـ « كتاب الغنية عن الكلام وأهله »

١١ ـ « كتاب العروس »

١٢ ـ « الرسالة الناصحة » فيما يعتقد فى الصفات ، وهـذه الستة الأخيرة لم أرها ولم أعلم مكان وجودها

هذه هى كتب أبى سليمان التى ذكرها الذين ترجموا له . وجاء فى طبقات الشافعية الكبرى للسبكى (ج ٢ ص ٢٢٢) ما يأتى :

قال الخطابى فى كتابه تفسير اللغة التى فى مختصر المزنى فى باب الشفعة : بلغنى عن ابراهيم بن السرى الزجاج النحوى أنه كان يذهب إلى أن الصاد تبدل سيناً مع الحروف كلها لقرب مخرجهما ، فحضر يوماً عند على بن عيسى فتذاكرا هـذه المسألة واختلفا فيها وثبت الزجاج على مقالته ، فلم يأت على ذلك إلا قليل من المدة ، فاحتاج الزجاج إلى كتاب إلى بعض العمال فى العناية فجاء إلى على ابن عيسى الوزير ينتجز الكتاب ، فلما كتب على بن عيسى صدر الكتاب وانتهى إلى ذكره كتب : وابراهيم بن السرى من أخس اخوانى ، فقال الرجل أيها الوزير : الله الله فى أمرى ! فقال له على بن عيسى إنما أردت أخص ، وهذه نسختك فأنت أبصر ، فان رجعت وإلا أنفذت الكتاب بما فيه . فقال قد رجعت أيها الوزير فأصلح الحرف واطو الكتاب اهـ

فهذا الذى نقلناه عن طبقات السبكى يفيد أن للخطابى كتاباً شرح فيه غريب اللغة التى فى مختصر المزنى ولكنى لم أر أحداً ذكر هذا الكتاب من كتب الخطابى ، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الشرح لمختصر المزنى مع أنه عدد الكثير من شروحه لكثير من المتقدمين والمتأخرين

شعره :

يعد الخطابى أديباً ذا حظ وافر فى الصناعتين النثر والنظم ؛ فاما نثره ففى إمكان القارئ الكريم الاطلاع عليه فى كتبه التى كتبها فى العلوم ، ومنها ما هو مطبوع ، لذلك لا أرى حاجة إلى ذكر شىء منه ، وأما شعره فمع أنه شعر جيد سلس عذب الألفاظ فهو مفرق هنا وهناك بين بعض كتبه وكتب بعض الذين ترجموا له ، وانى لذلك ذاكر منه كل ما عثرت عليه

قال أبو سعيد الخليل بن محمد الخطيب : كنت مع أبى سليمان الخطابى فرأى طائراً على شجرة فوقف ساعة يستمع ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى كنت ذاك الطائر الفردا ... من البرية منحازاً ومنفردا
فى غصن بان دهته الريح تخفضه ... طوراً وترفعه أفنانه صعدا
خلو الهموم سوى حب تلسه ... فى الترب أو نقبة يروى بها كبدا[١]
ما إن يؤرقه فكر لرزق غد ... ولا عليه حساب فى المعاد غدا
طوباك من طائر طوباك ويحك طب ... من كان مثلك فى الدنيا فقد سعدا

(١) منه نسخة فى جامع اوبس فى الموصل وأخرى فى مكتبة رواق الشوام فى الأزهر ويوجد النصف الثانى منه فى مكتبة المرحوم الشيخ محمد سلطان فى حلب مكتوبة سنة (٤٨٧)

(٢) منه نسخة فى دار الكتب العربية بدمشق ضمن مجموعة برقم (٢٠٨) ومعه كتاب شأن الدعاء له أيضاً

(٣) منه فى دار الكتب المصرية نسخة قيمة بخط محمد محمود التركزى تحت رقم (١٠١٠) حديث

(١) النقبة بضم النون وقد تفتح الجرعة

وله فى معاملة الناس بالحسنى وحب الخير لهم :

ارض للناس جميعاً مثل ما ترضى لنفسك
إنما النـــاس جميعاً كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك ولهم حس كحسك

وله فى الرد على من لامه على اعتزاله الناس وطول احتجابه :

وقائل ورأى من حجبتى عجباً
كم ذا التوارى وأنت الدهر محجوب
فقلت حلت نجوم العمر منذ بدا نجم المشيب ودين الله مطلوب
فلذت من وجل بالاستتار عن الأ بصار إن غريم الموت مرءوب

وله فى مداراة الناس ومصانعتهم :

مادمتُ حياً فدار الناس كلهم فانما أنت فى دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى
عما قليـــل نديماً للنـــدامات

وله يشكو ايذاء الناس بعضهم بعضاً فوق أذى الوحوش الضارية :

شر السباع الضوارى دونه وزر والناس شرهم مادونه وزر
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع وما نرى بشراً لم يؤذه بشر

وله يشكو من وسطه الذى لا يجد فيه من يفهمه وتسكن اليه نفسه :

وما غربة الانسان فى شقة النوى ولكنها والله فى عدم الشكل[1]
وإنى غريب بين بُست وأهلها وإن كان فيها أسرتى وبها أهلى

وله فى تهوين أمر الدنيا وعدم الاهتمام بها :

لعمرك ما الحياة وإن حرصنا عليها غير ربح مســـتعاره
وما للربح دائمة هبـــوب ولكن تارة تجرى وتاره

وله فى الحث على انتهاز الفرص قبل فواتها :

تغنم سكون الحادثات فانها وإن سكنت عما قريب تحرك
وبادر بأيام الســـلامة إنها رهون وهل للرهن عندك مترك

وله فى التحذير من الجهال وعدم الركون اليهم :

تحرز من الجهال جهدك إنهم وإن لبسوا ثوب المودة أعداء
وإن كان فيهم من يسرك قربه فكل لذيذ الطعم أوجُلُّه داء

وله فى العفو والقصد وذم المغالاة :

تسامح ولا تستوف حقك كله وأبق فلم يستقص قط كريم
ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرَفىْ قصد الأمور ذميم

وأورد جعفر بن شمس الخلافة فى كتاب الأدب للخطابى هذين البيتين :

وإنى لأعرف كيف الحقوق وكيف بر الصديق الصديق
ورحب فؤاد الفتى محنـــة عليه إذا كان فى الحال ضيق

وله يذكر حسن أثر العزلة فى نفسه :

إذا خلوت صفا ذهنى وعارضنى خواطر كطراز البرق فى الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على أذنى عرتنى منه حكلة العجم[1]

وله يصف ميله إلى البعد عن الناس وقلة مخالطتهم :

قد أولع الناس بالتـلاق والمرء صب إلى هواه
وإنما منهم صـــديق من لا يرانى ولا أراه

وله فى عزة النفس والتعفف مع الحاجة الملحة :

دعنى فلن أخلق دياجتى ولست أبدى للورى حاجتى
منزلتى يحفظها منزلى دياجتى تكرم دياجتى

وله :

قد جاء طوفان البلاد ولا أرى فى الأرض ويحى للنجاة سفينه
فاصعد إلى وزر السماء فان يكن يعييك فابك لنفسك المسكينه

وله :

سلكت عقاباً فى طريق كأنها صياصى ديوك أو أكف عقاب[2]
وما ذاك إلا أن ذنباً أحاط بى فكان عقابى فى سلوك عقاب

وله :

قل للذى ظل يلحانى ويعذلنى لنـائل فاته والخير مأمول
لا تطلب السمن إلا عند ذى سمن نال الولاية فالمعزول مهزول

بعض الآراء المنقولة عنه

كان الخطابى شديد الانكار على الفقهاء الذين يغفلون الحديث أو يتساهلون فيه ويقصرون همهم على آراء أئمتهم من الفقهاء كما كان ينكر على المحدثين اغفالهم الفقه واشتغالهم بالغريب وجمع الروايات[3] لذلك لم يكن غريباً من الخطابى أن يخالف من

(١) فى اليتيمة غمة بدل غربة وأخذ هذا المعنى عمر بن أبى عمر السجزى من الخطابى فقال :

ولبس اغترابى فى سجستان إننى عدمت بها الاخوان والدار والأهلا
ولكننى مالى بها من مشاكل وإن الغريب الفرد من يعدم الشكلا

وهم ياقوت فعد هذين البيتين فى شعر الخطابى.

(١) العجمة وزناً ومعنى
(٢) انظر مقدمة معالم السنة ص ٣ ، ٤ طبع حلب
(٣) انظر طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ٢١٩